

## الدرس (١١٠) من شرح رياض الصالحين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

**أما بعد:**

فواصل قراءتنا في كتاب رياض الصالحين لأبي زكريا النووي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، ولا نزال في باب التوبة في قصة توبة كعب بن مالك رضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين.

قال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: (ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ صَبَاحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً عَلَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ عَلَى الْحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى مِنَّا، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أَوْفَى عَلَيَّ سَلَعٍ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ أُنَبِّشُ، فَخَرَرْتُ سَاجِداً، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ.

فَإِذَنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ بِتُوبَةِ اللهِ عَزَّوَجَلَّ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّيْتُ صَلَاةَ الْفَجْرِ فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، فَذَهَبَ قَبْلَ صَاحِبِي مُبَشِّرُونَ وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فَرَسًا وَسَعَى سَاعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي، وَأَوْفَى عَلَيَّ الْجَبَلِ، فَكَانَ الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ.

فَلَمَّا جَاءَنِي الَّذِي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ نُوبِيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ بِبِشَارَتِهِ، وَوَاللهُ مَا أَمْلِكُ غَيْرُهُمَا يَوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبَسْتُهُمَا، وَأَنْطَلَقْتُ أَتَأَمُّمُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَتَلَقَانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّئُونَنِي بِالتَّوْبَةِ وَيَقُولُونَ لِي: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللهِ عَلَيْكَ. حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ).

هذا الذي ذكره كعب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عندما نزلت البشارة بتوبة الله عليه، وهي نعمة عظيمة، ومِنَّةٌ كَبِيرَةٌ، وفرحة عظيمة، فلَمَّا أَعْلَمَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الصَّحَابَةَ بَعْدَ صَلَاةِ الصُّبْحِ بِتُوبَةِ اللهِ عَلَى كَعْبِ وَصَاحِبِيهِ؛ فَفَرِحَ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ فَرَحًا عَظِيمًا، وَسَرُّوا بِذَلِكَ سُرُورًا

كبيرًا، وأخذوا يتسابقون كلٌّ إلى جهة، من الذي يصل أولاً إلى هؤلاء الذين منَّ الله عليهم بهذه النعمة.. توبة الله عليهم.

**فمنهم** من انطلق بفرسه، **ومنهم** هذا الذي فطن إلى هذه الطريقة العجيبة، حيث صعد على جبلٍ قريبٍ ونادى بصوته إلى جهة كعبٍ: أبشر يا كعب، ووصل هذا الصوت العالي من أعلى هذا الجبل.. جبل سلع إلى كعب، قبل أن يصله من كان قد ذهب إليه بالفرس، وعرف الصوت، ولمَّا جاء صاحب الصوت يؤكد البشارة، خلع كعبٌ ثوبيه وأهداهما إياه، واستعار مكانهما ثوبين، لأنه ما كان يملك غيرهما.

**وهذا يستفاد منه:** أهمية البشارة، وإدخال السرور على أخيك المسلم، إذا بلغك خبرٌ مفرح يتعلق به، بأن تسارع كما سارع الصحابة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، وأن تبادر كمبادرتهم لإبلاغه، ولو كان أمرًا يسيرًا، إذا كان نعمةً، أو أمرًا يرضي الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فتسارع إلى تبشيره، وإدخال السرور عليه، فتكون سابقًا إلى ذلك، ولا شك أن لهذا أثره العظيم على النفس، ولهذا سيأتي معنا: أن كعبًا أثر فيه هذا الأمر، وأيضًا خلع ثوبيه وقدمهما هدية لهذا المبشر.

**وهذا أيضًا يستفاد منه:** أنه إذا بُشِّرَ الإنسان بأمرٍ مفرح، يقدر ذلك للذي بشَّره وسابق إلى تبشيره.. يقدر له موقفه النبيل، وتصرفه الجميل، ومسارعتة إلى إدخال السرور عليه.

**ثم من جهة أخرى:** هذا أيضًا يبين لنا هذا السياق عمق المحبة والأخوة والصفاء الذي كان بين أصحاب النبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وهو الحال التي ينبغي أن تكون عليها أمة الإسلام، الذين أكرمهم الله تعالى بالانضواء تحت لوائه والدخول في جملة أتباعه صلى الله عليه وسلم.

قال كعبٌ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: **(وَأَنْطَلَقْتُ أَتَأَمُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ).**

أي: أقصد النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

**(يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهْنُونَنِي بِالتَّوْبَةِ وَيَقُولُونَ لِي: لَتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ).**

وهذا فيه كما تقدم الفرحة العظيم، والرابطة المتينة التي كانت بين أصحاب رسول الله ﷺ، بحيث كانت فرحة الواحد منهم تعد فرحة للجميع، وسرور الواحد منهم يعد سرورًا للجميع، وكلهم يتلقاه بهذا الفرحة والتهنئة.. (لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ).

قال: (حَتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ).

وهو أحد العشرة الذين بشرهم النبي ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْجَنَّةِ.  
(يَهْرُولُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّا نِي).

قام يهرول، أي: لم يذهب إليه مشيًا، وإنما ذهب إليه هرولةً.  
قال: (حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّا نِي)، أي: أراد أن يكون السابق ممن كانوا جلوسًا حول النبي ﷺ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لملاقاة كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بهذه التهنئة.

(وَاللَّهُ مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ فَكَانَ كَعْبٌ لَا يَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ).

أي: لا ينسى هذه المبادرة لطلحة رضي الله عنه وأرضاه.

(قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ وَهُوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ الشُّرُورِ).

أي: تظهر أسارير وجهه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

(«أَبَشِرْ بِخَيْرٍ يَوْمَ مَرَّ عَلَيْكَ مُذْ وَلَدْتِكَ أُمَّكَ»، فَقُلْتُ: أَمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمْ مِنْ عِنْدِ

اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا، بَلْ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ»).

أي: أنه نزل عليه بذلك وحي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا سَرَّ اسْتَنَارَ وَجْهُهُ حَتَّى كَأَنَّ وَجْهَهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ).

صلوات الله وسلامه عليه.

(وَكُنَّا نَعْرِفُ ذَلِكَ مِنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ

مِنْ مَالِي).

أي: أن أخرج من مالي.

(صَدَقَةَ إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ) إلى الله أي: خالصة يرجو بها ثوابه، وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم أي: ليجعلها في وجوه البر حيث أراد.

(فقال رسول الله ﷺ: «أمسك عليك بعض مالك، فهو خير لك»).

أي أمره عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَسْتَشْنِي بَعْضَ مَالِهِ، لِيَكُونَ فِي حَاجَتِهِ وَحَاجَةِ أَهْلِهِ.

(فقلت: إِنِّي أُمِسُّكَ سَهْمِي الَّذِي بِخَيْرٍ).

أي: نصيبي الذي نلته في خير.

(وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا أَنْجَانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا مَا بَقِيْتُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ أَحَدًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَبْلَاهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي صِدْقِ الْحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلَانِي اللَّهُ تَعَالَى، وَاللَّهِ مَا تَعَمَّدْتُ كَذِبَةً مُنْذُ قُلْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا، وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ تَعَالَى فِيمَا بَقِيَ).

قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ حتى بلغ: ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَقُوا حَتَّىٰ إِذَا صَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ حتى بلغ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

أي: أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ تَوْبَتَهُ عَلَى هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَقُوا كَعَبٍ وَصَاحِبِيهِ بِصِدْقِهِمْ، وَبَعْدَهُمْ عَنِ الْكُذْبِ، فَكَانَتْ لَهُمْ هَذِهِ الْعَاقِبَةُ الْعَظِيمَةُ الْمُبَارَكَةُ الَّتِي أَكْرَمَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِهَا، وَقَالَ اللَّهُ فِي تَمَامِ هَذَا السِّيَاقِ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، أَي: أَنَّ مِنْ صِدْقِ اللَّهِ، وَصِدْقِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَازَ بِالْعَاقِبَةِ الْحَمِيدَةِ، بِخِلَافِ الْكُذْبِ فَإِنَّ حَبْلَهُ مَقْطُوعٌ، وَعَاقِبَةُ صَاحِبِهِ إِلَى السُّوءِ وَالرَّدَى.

قال ابن القيم رحمه الله: "وقوله تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ}. إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ" [التوبة: ١١٧]، هذا من أعظم ما يُعَرِّفُ الْعَبْدَ قَدْرَ التَّوْبَةِ وَفَضْلَهَا عِنْدَ اللَّهِ، وَأَنَّهَا غَايَةُ كَمَالِ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ سَبْحَانَهُ أَعْطَاهُمْ هَذَا الْكَمَالَ بَعْدَ آخِرِ الْغَزَوَاتِ بَعْدَ أَنْ قَضَوْا

نحبهم، وبذلوا نفوسهم، وأموالهم، وديارهم لله، وكان غاية أمرهم أن تاب عليهم، ولهذا جعل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم توبة كعب خير يوم مرَّ عليه منذ ولدته أمه، إلى ذلك اليوم، ولا يعرف هذا حق معرفته إلا مَنْ عرف الله، وعرف حقوقه عليه، وعرف ما ينبغي له من عبوديته، وعرف نفسه وصفاتها وأفعالها، وأن الذي قام به من العبودية بالنسبة إلى حق ربه عليه، كقطرة في بحر، هذا إذا سلم من الآفات الظاهرة والباطنة، فسبحان مَنْ لا يسعُ عباده غيرُ عفوه ومغفرته، وتغمده لهم بمغفرته ورحمته، وليس إلا ذلك أو الهلاك".

**(قَالَ كَعْبٌ: وَاللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ إِذْ هَدَانِي اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ أَعْظَمَ فِي نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْ لَا أَكُونَ كَذَبْتُهُ، فَأَهْلِكَ كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا؛ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الْوَحْيَ شَرًّا مَا قَالَ لِأَحَدٍ، فَقَالَ: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَآوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٥-٩٦].**

**قَالَ كَعْبٌ: كُنَّا خُلَفْنَا أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ عَنْ أَمْرِ أَوْلِيكَ الَّذِينَ قَبَلَ مِنْهُمْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ فَبَايَعَهُمْ وَاسْتَعْفَرَ لَهُمْ وَأَرْجَأَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ بِذَلِكَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا﴾، وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ مِمَّا خُلِفْنَا تَخَلُّفْنَا عَنِ الْغَزْوِ، وَإِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانَا وَإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ وَاعْتَدَرَ إِلَيْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ. مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ. وَفِي رَوَايَةٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ يَوْمَ الْخَمِيسِ وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يَخْرُجَ يَوْمَ الْخَمِيسِ.**

**وفي رواية: وكان لا يقدم من سفر إلا نهاراً في الضحى، فإذا قدم بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين ثم جلس فيه).**

**ومما يستفاد من هذا الحديث العظيم المبارك، وهو مليء بالفوائد العظيمة النافعة: أهمية التوبة إلى الله سبحانه وتعالى، وأن العبد إذا وفق للتوبة الصادقة النصوح، فإن ذلك اليوم الذي يوفق فيه للتوبة خير أيامه، كما ذكر ذلك النبي عليه الصلاة والسلام لكعب رضي الله عنه.**

**ومن الفوائد:** أن العبد ينبغي عليه أن يتجنب تبرير أعماله واستخراج الأعذار للناس في أخطائه ومخالفاته، بحيث أن الناس يرضوا عنه، ومن المعلوم أن إقناع الناس، أو الاعتذار لهم بالأساليب أو الحيل، قد يحصل تصديق له في ذلك.. وقد يرضى عنه الناس، ويقولون: فلان معذور، لأنه كان يكذب عليهم ويخدعهم، ويظنون أنه صادق، فيقبلون منه هذا الظاهر، لكن ذلك لا ينفعه عند الله.. بل لا ينفع عند الله إلا الصدق مع الله.

ولهذا ينبغي على العبد أن يتجنب مثل هذه الطرق، وأن يكون صادقاً مع الله سبحانه وتعالى، وأن يقبل على الله بالتوبة النصوح، ليفوز بخيري الدنيا والآخرة.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في شرحه لهذا الحديث فوائد كثيرة مستفادة من هذه القصة أشير إلى شيء يسير منها.

قال رحمه الله: " وفيها عظم أمر المعصية وقد نبه الحسن البصري رحمه الله على ذلك فيما أخرجه ابن أبي حاتم عنه قال يا سبحان الله ما أكل هؤلاء الثلاثة ما لا حراماً ولا سفكوا دماً حراماً ولا أفسدوا في الأرض أصابهم ما سمعتم وضاعت عليهم الأرض بما رحبت فكيف بمن يواقع الفواحش والكبائر ، وفيها أن القوي في الدين يؤخذ بأشد مما يؤخذ الضعيف في الدين ، وجواز إخبار المرء عن تقصيره وتفريطه وعن سبب ذلك وما آل إليه أمره تحذيراً ونصيحة لغيره ، وجواز مدح المرء بما فيه من الخير إذا أمن الفتنة ، وتسليته نفسه بما لم يحصل له بما وقع لنظيره ، وفضل أهل بدر والعقبة ، والحلف للتأكيد من غير استحلاف ، والتورية عن المقصد ، ورد الغيبة .

وفيها أن المرء إذا لاحت له فرصة في الطاعة فحقه أن يبادر إليها ولا يسوف بها لئلا يحرمها كما قال تعالى: ((استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه))، ومثله قوله تعالى: ((ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة))، ونسأل الله تعالى أن يلهمنا المبادرة إلى طاعته وأن لا يسلبنا ما خولنا من نعمته ، وفيها جواز تمني ما فات من الخير .

وفيها مشروعية سجود الشكر ، والاستباق إلى البشارة بالخير ، وإعطاء البشير أنفس ما يحضر الذي يأتيه بالبشارة ، وتهنئة من تجددت له النعمة ، والقيام إليه إذا أقبل ، ومشروعية العارية ، ومصافحة القادم والقيام له ، والتزام المداومة على الخير الذي ينتفع به ، واستحباب الصدقة عند التوبة إلى غير ذلك من الفوائد، وهي كثيرة.

قال العيني رحمه الله في شرحه لهذا الحديث من صحيح البخاري: "فوائد الحديث المذكور أكثر من خمسين فائدة".

هذا ونسأل الله الكريم أن يتقبل منا أجمعين توبتنا وأن يغسل حوبتنا وأن يصلح لنا شأننا كله وأن يهدينا إليه صراطاً مستقيماً إنه سميع قريب مجيب. وصلى الله وسلّم على عبده ورسوله نبينا محمّداً وآله وصحبه أجمعين. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.